# الفصل الثالث

## البوذيّة *

### ١ – الأصول

كان الآريون حين انحدروا من مضايق كابول إلى بنجاب أشبه الناس بالعجم ، على ما يصفهم « هيرودوتس » ، أو بالجرمان على ما يصفهم تاسيت : قبائل بين البدو والحضر معظم مدرار ثروتهم قطعان الثيران والبقر ، ولهم قرى ومنازل ، وهم على علم بالزراعة ، فكانوا كما كانت شعوب الأرمن والسيروس على حدود ما بين حياة الترحال وحياة السكن يحكم كل أسرة أبوها ، ويقود كل قبيلة ملك أو رئيس حرب . ولم يكن عندهم فرق ولا طوائف إكليروس ، بل كان كل أب يقوم بالوظيفة التعبدية فى بيته ، وكانوا ذوى أخلاق ساذجة حرة صحيحة كتلك الأخلاق التى يجدها الإنسان فى أصول كل شعوب ذلك الجنس الآرى . ولم يكن للأوهام الصوفية المريضة أى أثر فيهم ، بل كانوا على العكس من ذلك ذوى عواطف كلها رجولة وشرف ، تنصرف عبادتهم للآلهة إلى طلب القوة والمجد والنصر والغنيمة .

---

* هذا الفصل تلخيص للترجمة الفرنسية التى قام بها الكاتب الفيلسوف هيبوليت تين لكتاب البوذية للكاتب الألمانى الشهير كوبين .

فإن بحثنا عن الصفة الخاصة التي كانوا يمتازون بها عن باقي الأجناس التي ترجع إلى الأصل الآري وجدناها متجلية في تخيلهم البالغ أبعد حدود الدقة ، وأعجب مظاهر النماء – فعندهم وحدهم توحد الأساطير في هذا الصفاء وذلك الامتداد ، حتى لكأنما خلق هذا الشعب ليرى آلهة في كل الأشياء ، وأشياء في كل الآلهة . يعبدون السماء المضيئة ، والنور اللألاء الذي يعم الأشياء وينفخ فيها الحياة . ويعبدون الصاعقة الرائعة ، والرعد المحسن الذي يشق السحب فيفك الأمطار المخصبة من إسارها . ويعبدون الشعاعين التوأمين ينبعثان من شواطئ الآفاق بشيرين بعودة الضياء . ويعبدون حمرة الأفق . والفجر الأبيض ينسل من خلال الظلام قبيل مطلع الشمس ليكشف صدره أمامها كشف العروس عن صدرها أمام روجها . ويعبدون « آتي » – وهي النار التي يثيرها احتكاك العصي بعضها ببعض – آتي « اللابسة ثياب الإبداع ، مختلفة ألوانها متعددة أشكالها بديعة تعم الأرض ، تخمد وتشب وكثيراً ما تهرم ثم يعود إليها شبابها » ويعبدون الرياح والأنهار ومختلف مظاهر الشمس . وبالجملة فهم يعبدون كل ظواهر الطبيعة على حالها في نقائها وصفائها . لا على صور الإنسان كما جعلها « هوميروس » . ولن يستطيع الإنسان أن يتخيل مبلغ ذلك النقاء والصفاء قبل أن يقرأ الفيدياس ، فليست الأساطير عندهم سراً خفيًّا ، وانما هي أشياء واضحة جلية . بل هي تعبير وإيضاح . ولن ترى لغة أبلغ ولا أسلس من لغتهم . تعطيك صور السحاب وموج الهواء وانتقال الفصول وكل ما للسماء والنار والعواصف من أحداث . ولم تلق الطبيعة وسطاً ألين مرونة ولا أحسن ملاءمة لتظهر فيه بمختلف مظاهرها غير المتهية ما لاقت في هذا الحيز . ومهما يكن للطبيعة من استحالات ومظاهر فإن الخيال البوذي ليس أقل

منها فى ذلك . فليست له آلهة ذات شخصية ثابتة ، ولكنها تستحيل ويمتزج بعضها ببعض . ففارونا [١] هى « أندرا » ، لأن الرعد هو السماء الصاعقة وأندرأ [٢] هى « آنى » لأن الصاعقة هى النار السماوية . وكل واحد من هؤلاء الآلهة هو الإله الأعلى . وليس لأحد منهم شخصية معينة ؛ إذ كل واحد ليس إلا لحظة من لحظات الطبيعة قدّر حسب حال التصور أن يشتمل صاحبه أوأن يشتمله صاحبه . لذلك كانت الآلهة متعددة بالغة فى الكثرة . فكل لحظة من لحظات الطبيعة ، وكل حال من أحوال التصور قد تنتج إلهاً هى الأخرى . والشراب الذى يقدم للآلهة والصلوات والأدعية وكل طقوس العبادة تنتهى بها الحال لتكون قوى وآلهة تنادى وتوقر ، وحيثما وجدت قوة — والقوى توجد فى كل مكان — فالآرى يقيم إلهاً لا على أنه شخص ، ولكن على أنه قوة . وهذا العمرى جمع عجيب بين التعمق التجريدى والإحساس الشعرى ، بل بين الصلاحية لفهم الطبيعة والميل لتمثيلها وتصورها . ولم يثبت جنس من الأجناس أول قيامه ما أثبته الجنس الآرى من هذا الذكاء الدقيق الحساس المتحفز لإبداع خلائق محيطة غير متناهية المستعد للانثناء والاختفاء تحت النماء الخصيب الذى تنموه آلهته .

ليسمح القارئ بالتدقيق فى ملاحظة هذه الصورة من صور الذهن القديم . فإذا أضيف إليها المركز الجديد الذى أعده الغزو والطقس للشعوب الآرية إذن لأحطت بالسببين الشاملين كل ما سواهما الحاويين

---

(١) وهو الرعد

(٢) وهو السماء

موجز شأن الجنس الهندى وفكرته ، وإذن للمست القوى التى لن تزول ، والتى توجه زوبعة الحوادث الإنسانية والإرادات الصناعية البشرية والتى تقيم النظامات وتبعث الديانات وتنشر الأفكار وتقرر الأخلاق فلا يستطيع حادث وقفها ولا يقدر مجهود شخصى على قهرها ، والتى تقضى على مئات الملايين من الخلائق بالذل وفساد الخلق والخيال واليأس ، وإذن يحيط الإنسان بواقع الحياة الهندية العظيمة الفظيعة . وما كان لنا أن نبتهج هنا ابتهاج سيبيون بمنظر المذبحة التى خلطت ما بين أشلاء جيشى ماسينا وقرطاجنة ، فلسنا من الرومان ، بل نحن رجال يأخذنا الإشفاق كلما فكرنا فى مصيرنا وفيما قدر لنا . ولو أن شيئاً بالغاً فى العظمة يدعونا للتفكير فيما قدر لجنسنا أن يحتمله لكانت تلك المآسى الصحيحة غير الملفقة مسرحها نصف قارة ، ومداها ثلاثون قرناً ، وأشخاصها قوى القدر المحتوم تتطاحن أرزاؤها خلال بؤس تسعين جيلاً من الأجيال الإنسانية ، ودموعها تنهمر من غير أن تهدأ إلى غاية .

تقدم الآريون على مهل من السند إلى الجنج وجعلوا يخضعون لحكمهم السكان السود ذوى الشعر المسطوح . ولما كان هؤلاء الهمج الذين أحتلوا شبه الجزيرة عرضة لأمراض جلدية فظيعة ، وكانوا يعبدون الثعابين وشياطين الهواء ، فقد عاملهم الغزاة كأنهم قطيع من الحيوانات الخسيسة وظلت الحروب أزمنة طويلة استقر بعدها القادمون إلى عصر يشبه عصور أوربا المتوسطة التى أعقبت غزو قوط الأربك ولبارودى البرات وأفرنجة كلوفيس ، وأحلت بينهم حياة الاستقرار محل حياة الترحال ، وقام النظام البطركى ( الأبوى ) مقام الإمارات الحربية وتميـــز الطبقات . فجاء فيما بعد طبقة الأشراف والغالبين طبقة الجنس الخسيس المغلوب من ( الكودرا ) –

وهم جماعة العبيد من الزراع والصناع والعمال الذين خضعوا للغلب . وجاء من دون هؤلاء الأجناس المطرودون والهمج المتوحشون الذين أمتنعوا على الجمعية الجديدة واحتموا منها بالمغائر والجبال والمستنقعات ، ثم انقسم الجنس الغالب بعد ذلك بقوة الظروف وانحط مجموع الأمة من العاملين إلى مركز دون مركز الأسر المحاربة التى لزمت التمرن على الأسلحة ، ودون مركز الأسر الدينية التى أخذت على عاتقها الأحتفاظ بطقوس العادات وأدائها . وقد أدى هذا النظام إلى انفصال الأعمال ، كما أدى الغلب إلى انفصال الأجناس وبدأت الفرق تتكون وجعلت الفوارق بينها تقوى وتعظم . ثم حدث من بعد ذلك حادث حاسم أدى إلى تقديسها وبالتالى إلى تخليدها . فقد قامت بين الفرقتين الرئيستين : فرقة البراهمة وفرقة الشاترية ، حرب استعلاء كالحرب التى قامت بين الجلف والجيلان ، ثم انتصر فيها البراهمة بسبب استنادهم إلى الطبقات الوضيعة . وكان نصراً أتم مما حازه الباباوات ضد الهوهنستوفن . وقد ترتب على ذلك استئصال الشاترية لولا أن التجأ القساوسة لاستبقاء فرع عقيم منهم مخافة أن يبتلعهم الفناء بعد إذ وقفت جمعيتهم المتداعية على حافة مائلة لتنهار فيه . وقد أصبح أهم ما للملوك والشاترية من وظيفة أن يباركوا البراهمة حماية لهم ، وبذلك طبعت الجمعية بالطابع الدينى وأصبح انفصال الفرق أمراً مقرراً ، وانقلبت الأنظمة المدنية قواعد دينية ، وأخذت الحكومة الشكل الدينى . والعقل الدينى كذلك ، وظلا محتفظين به إلى وقتنا هذا .

ولتفوق البراهمة هذا أسباب مختلفة ، منها : تغير الخلق الآرى تحت تأثير الطقس . فإن شمس الهند قاسية فظيعة لا يطيقها أحد ورأسه عار إلا السكان الأهالى سود الجلود . فإذا جاء تحت هذه السماء المحرقة شعب

أجنبى آت من بلاد معتدلة ، بل باردة رأيته لا يطيق المرانة الجسمية ، بل يبدأ عنده الميل للراحة والكسل ، وتتلاشى عنده حاجات البطن والمعدة وتفتر عضلاته وتصبح أعصابه سريعة إلى التهيج ، وذهنه أميل إلى التأمل والحلم . ينتهى ذلك بتكوين هذا الشعب الغريب الذى يصفه السائحون اليوم لنا : حساسية إنسانية مرتعشة ودقة فى التصور عجيبة ، وروح واقفة عند حدود الجنون ، قادرة على كل اضطراب وكل ضعف وكل إغراق ، مهيأة أن تنقلب أمام أتفه الصدمات ، مجاورة للأفن والهوس ونوبات الجنون ، وخيال يموج بأحلام فظيعة تنشر الرجل وتطويه على نحو ما يطأ الرجل الضخم الدودة الحقيرة . ولم يجد الدين فى الطبائع الإنسانية مثل ما وجد من الصلاحية فى هذه الروح لينمو ويترعرع . لذلك نما غراسه وتأصلت جذوره وامتدت فروعه وانقلب الطبع الشعرى إلى نظر باطنى أساسه وحدة الوجود ، فتضامت الآلهة الكثيرة المتفرقة تحت حكم ثلاثة آلهة ذوى سلطان هم : « فارونا » فى السماء ، « وأندرا » فى الهواء ، « وآنى » على الأرض . ومن وراء هذه الآلهة الثلاثة ظهرت الروح الكبرى التى تعمل بواسطتها لإحياء الأشياء . وتلك هى الشمس . ثم يستمر التفكير التجريدى العميق فى سبيل تقوية الطبيعة الحارة الدائمة التجدد والسيولة حتى يستبعد هذه الشمس المحسوسة ويستظهر القوة العليا من خلال الأشكال المتغيرة ويقرر : أنه لم يكن فى البدء إلا الموجود غير المحدود ، الموجود النقى غير ذى الشكل ، وأن كل شىء كان مختلطاً به وأنه كان مطمئناً فى الفراغ ، وأن هذا العالم نتج بقوة فكرته . أما عن ماهية هذا الموجود فقد وصلت المثابرة والجد بالأبحاث الفلسفية لا نتزاعه من دائرة الطبيعة المحسوسة ووضعه فى سلطان القساوسة . فقد كانت النار التى

أوقدها البراهمة واستبقوا عقيدتها من بين الآلهة القديمة أيضاً ، لكن هذه النار بالرغم من عظمتها كانت محسوسة بحيث لا يمكن أن تكون الموجود العام النقى الطاهر . لذلك أخذ أحد أسمائها – البرامانسيائى ، أى ملك العادة – فصار إلهاً مستقلاً غير مادى ، وصار يزداد أهمية شيئاً فشيئاً حتى اشتمل كل ما سواه . ثم بتر من هذا الإله برهمة جديد أبعد عن المادة وأغرق فى جوهر العبادة التى أصبحت الموجود الأول لاشكل له وهو لكل شىء مشتمل . وكذلك اختلطت العبادة بمبدأ العوالم وبالإله الأعلى . وسبب ذلك أن التضحية والكلمة المقدسة والعبادة لم تكن عند هذه الأذهان المهتاجة مجرد دعوة والتماس ، بل كانت قوة ظاهرة متسلطة . وقديماً اعتقد هؤلاء الناس أنهم يلزمون الآلهة الطاعة بواسطة هذه العبادات ، وبالغوا فى تصورهم لذلك حتى حسبوا أن ليس للعبادة دافع . لذلك ألهوا « مونة » البناء والعصى ، كما ألهوا كل لحظة من لحظات التضحية ، ووصلوا فى تصورهم إلى جعل القوة التى يخضع لها العالم بأسره ماثلة فى الفكرة المتواترة . وقد جاء على لسان الملكة فى إحدى أغانى ربج : « إننى أنا الملكة وأول من يستحق التكريم . فى مترا وأندرا وآنى والإسفانيين وكل من سواهم وأنا الحالّة بالآلهة فى كل شىء ، والنافذة إلى كل شىء . بل أنا مبدأ كل الموجودات وكالريح أهب من كل مكان » . أما سادة هذه الكلمة وتلك العبادة فهم البراهمة ، وهم بذلك الآلهة على الأرض . ولقد قال برهمة فى إحدى بوراناته : Pourans : إنه يأكل بفمهم وأن لا أحد يعدلهم ، وأنهم الآلهة ، لذلك هم فى الذروة من كل الأشياء . وظاهر أن سلطانهم بين مثل تلك العقائد سلطان باق إلى الأبد .

والآن فلننظر لمـــا فى مجموع مذهبهم من أفكار ونظم ، حتى نرى

ماذا تكون الحيـــاة تحت تأثيرها . فبرهمة الذى هو روح الأشياء والموجود غير المحدود ينمو ، ونموه هو العالم . وهذا النمو ليس منفصلاً عنه ، بل إن برهمة نفسه يسيل وينتشر ويخرج من نفسه خروج الجدول من النبع ، والشجرة من البذر ، والنسيج من العنكبوت . لكن هذا العالم الذى هو بالذات برهمة ليس إلا ذاته منقوصة مشوهة ، لأن ابتعاد المادة الأصلية عن أصلها أفسدها حتى صارت درجات تحولها المستمرة درجات إلى تزايد الفساد ، فبينما ترى الآلهة والنور فى الصف الأول إذا الصف الثانى فيه الناس والشهوات ، وفى الصف الثالث الحيوانات والنباتات والظلمة والمادة . وهذه المظاهر المتعاقبة من برهمة ليست إلا برهمة مهدوداً مضطرباً ساقطاً مستمرًا مع تحوله فى سقوطه وتدركه . فالعالم إذن فساد ، والحياة شر ، والأرض قرارة بؤس وتعس . ولا كمال ولا سعادة إلا فى الوجود الجامد الخالى . وخير الخير لكل مخلوق أن يعود فينغمس فى برهمة الجامد Immutable الذى خرج منه .

هذه العقيدة تبعث بلا شك على اليأس المبرح وتدفع إلى النفس التقزز العام من الحياة ، وتدعو إلى إفناء الشخصية الإنسانية إفناء تامًّا . وقد كان ذلك هو الشأن فى أوربا حيثما قامت مثل هذه العقيدة عند الإسكندريين والأغنوطيين وما سواهما من الطوائف المتصوفة وليدة الضغط الرومانى . على أن الذى زاد الطين بلة أن امتزجت بهذه العقيدة الهندية عقيدة شر منها . تلك هى أن الحياة ليست شرًّا وحدها ، بل هى شر يهوى الإنسان إليه من جديد بعد موته . فإن الأرواح تتنقل من جسم إلى آخر وفى مختلف أنواع الأجسام من حجر ونبات وحيوانات وآلهة ورجال بلا انقطاع ولا سكون مدى ملايين القرون من أرقى الدرجات إلى

أسفل الدركات تقذف بها خفاياها ، على مقدار دركات تلك الخطايا والتى تصل فى أتعس الأحوال وأدنئها إلى ثمان وعشرين جهنم تشقى فيها بصنوف من العذاب رتبتها وهذبتها وأطالتها أوهام أشقياء وجلادين . ففكرة الشر الكائن المغروس فى أعماق قلب الأشياء ، المتضاعف المنتشر فى كل ما هنا لك مما يحيط بالحياة الإنسانية ، المتعاظم إلى ما وراء كل الحدود مما أبدع له الخيال الهائج المضطرب من مبتكرات الفظائع ، تلك هى الفكرة السائدة التى تثقل كاهلهم فى الحياة النظرية وتودى بهم فى الحياة العملية إلى شرور تتوارث معها جسامة وعظماً .

وسبب هذه الفكرة أن الاستبداد هناك تام شامل يحول من كل النواحى دون العمل ، ويشل الإرادة . وقد انقلبت الملكات الحربية أثناء هذا التوتر العصبى العام إلى استبدادات مطلقة ، وأدخلت صنوف التعذيب والإلزام والتخريب وكل ما إلى ذلك من مفاسد الحكومات الشرقية . وقامت الفوارق بين الطوائف منيعة لا يمكن تخطيها ، وارتبط كل بحظه ونصيبه وكأنما شد إليه بأغلال من حديد . زد على ذلك أن كل لحظة من لحظات الحياة وكل جزئية من جزئياتها نظمت حتى لم يبق للإنسان حرية فى حركاته لشدة ما قيده الاستبداد الدينى وغلله . وهذا الاستبداد أضيق خناقاً من الاستبداد غير الدينى . قطعت المخاوف الناعسة الأوامر والنواهى التى لا عدد لها والمقدسة كلها فى النفس المضطربة . ومن هذه الأوامر ما يرتب دقائق العقيدة وطقوسها ، ومنها ما ينظم الأدعية والصلوات والقرابين والغسل والوضوء والرغبات والبخور ، ومنها ما يعين ملبس وأخلاق كل طائفة . ومنها ما يرسم الذهاب والجيئة والنوم والملبس وخلعه والاستحمام والتطيب وسائر الوظائف الجسدية . فهذا كله يذكرنا بالأعمال الكثيرة

التى كانت تشغل القسيس فى ديره كل نهار أيام القرون الوسطى حين كان من الخطيئة أن يسرع الإنسان السير أو أن يرفع بصره إلى الكنيسة . وقد كان هذا الضغط لدى البراهمة مضاعفاً مئات المرات حتى لايسعه شيء . وما كان لذاكرة أن تعى مختلف الأوامر التى لا حصر لها ثم كان كل ترك لأى من هذه الأوامر خطيئة . وما كان لأحد مهما يبلغ من دقة انتباهه أن يجتنب موجبات الدنس . وكان كل دنس خطيئة . فلم تلك ملامسة جثة الميت هى وحدها التى تدنس المؤمن . بل كان يدنسه كذلك مجرد الاقتراب من أى مكان وضعت فيه أشلاء إنسان أو بقايا حيوان أو عظام أو شعر أو أظافر أو قذر . كما كان يدنسه استعمال إناء غير طاهر وتنفس من شرب الخمر أو أكل الثوم . ويقابل كل خطيئة تكفير ووجوب الطهر بالماء وبروث البقر وتلاوة الأدعية وأنواع من تعذيب الجسد تبلغ أحياناً من الفظاعة أكثر مما بلغه تمثيل قسسنا أنفسهم . فمن قتل بقرة خطأ لزمه ارتداء جلدها والبقاء ملتحفاً إياه والإقامة فى آخر مرعى رعت فيه مدى ثلاثة أشهر ليل نهار . ومن شرب العرق عمداً لزمه أن يشرب من سائل يغلى حتى تحترق أحشاؤه وحتى يموت . فلعلك تستطيع وقد رأيت ذلك أن تحكم على مبلغ ما كان ثبت من الفظائع الدينية . فإذا ذكرت إلى جانب ذلك أن عندهم ثمانية وعشرين جحيماً مفزعة يهوى إليها كل من وقع فى خطيئة أو أهمل أمراً أو لم يتب توبة كاملة أو نسى أن يكفّر . ثم هو لا يخرج منها إلا ليتنقل تنقلا متعوساً طوال الدهر من جسم إلى جسم ليكون يوماً دودة وآخر ثعباناً أو حشرة أو رجلا زنيماً . وإذا ذكرت المخاوف الدائمة التجدد وآلام تلك الأوهام الهائمة المحتشدة إذن لفهمت الرغبة العظيمة فى الخلاص الأخير تدفعها

ثورة اليأس واندفاع الصيحة المضغوطة الثائرة .

وكيف السبيل إلى هذا الخلاص ؟ لقد بلغ من مسيس الحاجة إليه أن تعلق به رؤساء تلك الجمعية وأن أوضح القانون طريقه . قال ماتو : على البرهمى متى لاحظ أن عضله ضعف ، وأن البياض قد انسل إلى شعره ، وكان قد رأى حفيداً له ، أن يهرع إلى الوحدة هو وزوجته . ثم ليرُض نفسه على الحرمان وتعذيب الجسم وليلزم العبادة والصوم والسهر وليعرّض جسده عارياً إلى قوارس الطقس إبان فصل الأمطار ، وليقف بين أربع نيران تحت الشمس المحرقة أثناء الفصل الحار ، ثم ليعدم فى نفسه كل شهوة وكل شهية . فإذا تم له ذلك ترك زوجته وعاف صحبتها ولم يأكل إلا مرة كل يوم وعاش من إحسان المحسنين ومحا من ذهنه كل إرادة وكل فكرة محسوسة . ومتى صار كذلك بسيطاً نقيًّا طاهراً أصبح خالصاً من الشر . وذلك لا شك دواء يعالج به المرء نفسه . فإن الإمعان فى الجمود يقتل الحس . والإمعان فى التلاشى يقطع على الإنسان سبيل الألم . بعد ذلك ولما تدعو إليه الوحدة من التأمل ينفتح طريق جديد تقوم عنده المبادئ التجريدية على أساس من النظر الفلسفى ، فينقلب المتصوفون فلاسفة وتتصادم فرق المتكلمين فيذهب بعض . تمشياً مع العقائد القائمة إلى أنه ليس إلا موجود واحد هو برهمة ، وأنه غير محدود وأنه طاهر وأنه لا صفة له ولا شكل وأن الخلائق المختلفة ليست إلا تقلباته وتدرجاته . ثم يتخطون العقائد إلى أن العالم وهم ولا شىء موجود أصلاً خارج برهمة . وإلى أن العلم إنما هو معرفة العدم فى الأشياء . وإنما ينتهى بالعاقل تأمله إلى عدم الاعتقاد بوجود خاص له ثم لا يرى إلا الموجود الخالى لا شىء وراءه ولا شىء خارجاً عنه . ويقوم إلى جانب

هؤلاء المفكرين ، السنيين » مفكرون أحرار يتفقون معهم فى أن الخلاص هو الغاية ، وأن الوسيلة إليه هى معرفة الوهم . لكن الأولين يحررون الإنسان من نير الطبيعة بتقريرهم أن الطبيعة لا وجود لها ، فى حين يحرره الآخرون بتقريرهم أن الروح جوهر بسيط نقى لا سبيل للطبيعة عليه . فالأولون يعدمون الشر بإنكار مسبباته فى حين يعدمه الآخرون بإنكار المجرى الذى يصل هو إلينا عن طريقه . لذلك كان خلاص الروح عند ( الفدنتا ) انغماسها فى الوجود المتشابه وعند ( السنخيا ) برجوعها إلى نفسها – هذه هى التأملات التى نزع إليها المعتزلة قبل مجىء بوذا . وإن السائح الذى يرى هؤلاء الناس على ما يصفهم الشعراء وقوفاً تحت شجرة من أشجار الموز ناحلة أبدانهم منقطعة حركتهم ثابتة عيونهم محتبسة أنفاسهم ليرى مشهداً فذًّا لا مثال له . فالفلسفة لم تكن هنا مثلما كانت عند اليونان ترويحاً عن الذهن وتسريحاً للفكر المطلق المنظم . بل كانت على خصبها وسعتها فى التفصيلات والتحليلات وفى دقة النظر ذات غاية ترمى إلى عمل من شأنه تحويل الإنسان نفسه بنفسه والجهاد لذلك جهاداً عظيماً يصل بالذهن إلى حدود الخيال والهوس لتمركزه وثباته عند نقطة واحدة معينة ودوام العودة إليها مدى الشهور والسنين . وإنك لتجد عند المتصوفة وسائل ميكانيكية لإثارة صور الهوس فى النفس . ولا عجب فتلك نتيجة المواقف العنيفة الطويلة المدى . فإن الإنسان يفر من الألم كما يسيل الماء من فوق المنحدر ، فإذا زاد به الألم وبلغ منتهاه استعاذ منه إلى كل ملجأ ولو كان قتل الحس بإتلاف الأعضاء إتلافاً منظماً ، أو كان الجنون بإتلاف عقله كذلك . ولقد كان من واجب كل من ارتفع بعض الشىء عن سواد الرهط الذى يعيش فيه أن يبحث عن ملجأ يحتمى به . وكان كل

حكيم راجح العقل يخلق لنفسه ملجأ ويدعو الناس إليه . وبذلك تكونت طائفة كبيرة من الفلسفات والديانات والأنظمة والنظريات حتى ظهر أخيراً من جمع الكل ووجههم وجهة الطريق الحق : إلى السلام .

## ٢ – مميزات البوذية

لا يحرك الإنسانُ الناس بفكرة ولكن بعاطفة . وقد تدعهم أعمق النظريات وأدقها ثقالا ثم تخرجهم عن طوقهم نصيحة مبتذلة . وبعض العبارات المتداولة التى صرنا لا نهتم اليوم لها ظهرت فى الماضى اكتشافاً معجزاً قدس صاحب الوحى به . والجماعة المتألمة الطامحة كالرجل الطامح المتألم ، تأتيه بما شئت من نظريات متماسكة وأنسجة بديعة من المضاربات الفلسفية فتنزلق هذه الشروح عن ذهنه دون أن تخترق حجب نفسه وتراه يستمع إليك لحظة ثم يحييك تحية الرجل الكيس ليعود فينغمس فى ألمه ، على حين ترى كلمة متداولة تقال بلهجة مؤثرة تستدر دمعه وتدفع به إلى أحضانك مسلماً زمامه وإرادته . وكذلك الشأن فى أزمات الجنس البشرى . ترى الناس جميعاً ينتظرون كلمة معينة هى وحدها التى يستطيعون فهمها . أما الكلمات الأخر فتمر بهم وكأنها جلبة سخيفة تطن مضطربة حول آذانهم ، ثم لا يكاد يهمس بالكلمة المنتظرة هامس حتى ترى الناس جميعاً وقد أصاخوا لها وتلقوها وتناقلوها وأكبروها باجتماع أصواتهم جميعاً ، ذلك بأنها المقابل لحاجة عظيمة متغلغلة فى نفوسهم ، والأثر لتطور عام خفى ، ومظهر مجموعة ضخمة من التصورات والجهود المتسللة خلال قرون عدة

فى مختلف طبقات الجمعية وضيعها ورفيعها ، والآخذة بالأفكار المختلفة . . . فهى فى ظهورها كالنبع يثور متى لاقت ضربة المجلس طبقات الماء المضغوط . ولقد زعم الزاعمون أن « محمداً » كان ملفقاً - وحاشاه - ألف ما بين الإنجيل وآراء الفرق التى عاصرته . وأن « لوثر » إنما كرر بعبارات ضخمة ما سبقه إليه « جان هس » و « فيكلف » ، لكن الحقيقة أن هؤلاء إنما نطقوا فى عصرهم وأمتهم بالكلمة الفذة ونطقوا بها لا بشفاههم ولكن بكل قلبهم وبكل كيانهم ووجودهم . وذلك ما جعل لكلامهم قوة ولإصلاحهم قيمة . وذلك هو ما يجب أن يبحث عنه فى أحاديث « ساكيا مونى » وإصلاحه .

تنقل الأساطير أنه كان فى السموات بين الآلهة ، وأنه اشتمل على منتهى الفضائل برحمته وإخلاصه وتقواه ، وأنه جمعها فى متعاقب حيواته [1] ثم إنه اعتزم آخر الأمر لخلاص الموجودات الحية أن يهبط فى أحشاء امرأة فأجال طرفه فى العالم ثم اختار ميادين وهبط إليها - ولم يمسسها رجل فى شعاع مضيء ذى خمسة ألوان . ولما حان الحين ولد وتربى وزوج فى حجر المليك الذى كانت ميادين زوجته . لكنه لما بلغ التاسعة والعشرين - وكان قد ذاق كل لذائذ الحياة - اختمرت أفكاره العظيمة فشعر بعطف على الخلائق وفكر فى خلاصها . وسبب ذلك أنه رأى يوماً فى طريقه وقد خرج من القصر إلى إحدى الحدائق هرماً مقوس الجسم أصلع الرأس مجعد الوجه مرتعش الأطراف . ورأى فى مرة أخرى مريضاً لا يرجى برؤه مهملا أمره مغطى جسمه . ثم رأى فى مرة ثالثة جثة بالية قد أكلها الدود ، فأنعم النظر فى هذه الأرزاء وخرج من تفكيره إلى أن الشباب والصحة

(١) جمع حياة .

فى الحياة ليست شيئاً مادام يأتى عليها الهرم والمرض والموت فأخذته الرأفة بحال الإنسان وجعل يبحث عن دواء لهذه الأمراض العضال . فلما خرج مرة رابعة رأى متسولا متديناً دله جد مظهره وبادى كرامته على طمأنينة نفسه . فاعتزم للحال أمام هذا المنظر أن يعتزل العالم . ولقد وضع أبوه حراساً حول القصر ليحولوا دون تركه إياه لكنه أفلت منهم واحتمى بالوحدة وظل سبع سنوات يعالج أقسى أنواع التوبة ويعانى الجوع والعطش والحر والقر والمطر ولا يطعم كل يوم إلا حبة من سمسم . ثم رأى آخر هذا الزمن أن الاستماتة تغشى على الذهن بدل أن تربيه ، فطعم حتى عاد قوياً جميلا وذهب إلى مكان نذر أن لا يخرج منه حتى يصير ( بوذا ) . هنالك جاء إليه « مارا » أمير هذا العالم وإله الحب والخطيئة والموت فهاجمه بكل أنواع الغواية مزعجاً إياه بدعوة سلاحه ، ومغوياً إياه بحسن فتياته ، لكن القديس ظل مطمئناً فلم تزعجه المخاوف « لأنه يرى كل الأمور حلماً ووهماً » ولم يستغوه الجمال ، لأن أجمل الأجسام لم تكن فى نظره إلا بعض فقاقيع الماء والخيالات الزائلة . عند ذلك انهزمت الشياطين وبدأ النور الداخلى ، فذكر تعدد ميلاده السابق وميلاد كل الخلائق فأحاط فى نظرة بالعوالم الهائلة التى لا عدد لها ووقف على السر الأبدى لكل الأسباب وكل النتائج ، واخترق حجب مظاهر التطور والتغير وعرف العدم الذى هو حقيقة مادة الأشياء ، ووصل إلى المبدأ الأسمى المؤدى إلى السلام .

ويتكون هذا المذهب من حقائق أربع : فالوجود ألم لا يستدعى الهرم والمرض والحرمان والموت . وإنما يجعل الوجود ألماً تلك الرغبة الدائمة المتجددة والتى تجد أبداً ما يحول دون ما ترمى إليه من الاتصال بالأشياء والتعلق بالشباب وبالصحة وبالحياة . إذن فيجب إعدام الرغبة لإعدام الألم .

ولإعدام الرغبة يجب أن نتخلى عن أنفسنا وأن نتخلص من ظمئنا الموجود وأن لا نشعر بانجذاب نحو أى شيء ولا لأى موجود ، تلك هى النظرية الأولى التى لم يتعدها « ساكيا مونى » على الأغلب . لكن التعمق فى البحث يكشف لنا عن فكرة تجريدية عميقة كانت أساس ما تلاها ، ولم يفت المفكرين الجادين الذين جاءوا فيما بعد استخلاصها . تلك الفكرة هى أن الحكيم يصل إلى التخلى والجمود حين يرى أن كل موجود يهلك لأنه مركب وأن هلاكه دليل على أنه ليس إلا مظهراً لا قوام له ولا قوة ، وظاهرة سائرة إلى العدم كالزبد يكون على سطح الماء ثم يفنى ، أو كالصورة التى تبدو فى المرآة . ومن ثم يصل إلى الاقتناع بأن الأشياء لا وجود لها وما دام الموجود لا وجود له فالميلاد لا وجود له . وبإعدام الميلاد ينعدم الهرم والموت والبؤس والآلام والأحزان والقلق والمشقة ، وبهذه الوسيلة تنعدم كومة الأحزان المكدسة . فإذا وصل الإنسان إلى هذا الشعور بعدمه تعداه الألم ، لأن الألم ليس إلا دخاناً كالوجود فى التلاشى العام . وعندئذ يتحور الإنسان ويصبح ولا حكم للحوادث عليه ، ويطمئن الطمأنينة الخالدة إلى فكرة الفراغ الذى هو أساس كل شيء وكنهه . وبذلك يصل إلى النرفانا ويصبح « بوذا » .

ذلك هو الطريق الفلسفى . لكن ثمة طريقاً آخر عاماً وجد التعساء فى بابه الواسع مدخلا للاحتماء بالديانة الجديدة التى كانت أكثر الأشياء ملاءمة للأرواح يومئذ ، فإن تخلى الإنسان عن نفسه خلق لضيق بالنفس إذا جمدت ، وعندئذ تفنى الأنفة والأطماع والشهوات الشديدة المتحاربة أو الآخذة المرء عن نفسه حتى لتدوس الرجل بقدمك فلا يغضب ولا يفكر فى القيام ، ويحسب طبيعياً بعدماسقط أن يبقى فى الأرض . فإذا حدثه

محدث عن نفسه خيل إليه أنه إنما يحدثه عن سواه لأنه لا يعبأ بذاته. ثم هو لا يهتم بالأشياء الجميلة أو البراقة ، بل يبقى أمامها فى جموده وهموده بسبب ما أصاب إحساسه من البلى وكذلك تراه على أتم استعداد لقبول مبدأ نكران الذات العام . فإذا قال « بوذا » : « اقتل الشهوة فى نفسك » كانت الشهوة وقد انعدم من قبل جلها . وإن قال : « اقطع تلك الصلة الأنانية الملتهبة التى تدفعك للتمسك بالأشياء » ، فإذا البؤس وقد جاء على آخر خيوط تلك الصلة . ولا عجب والإنسان فى تلك الحال يوصى بالجمود والاستكانة أن يستمع لمثل هذه النصائح : أمح من نفسك الكبرياء والحسد والغضب وابعد عن ملاذ الحس واقمع فكرك ، وخير أن يقمع الإنسان نفسه من أن يقمع نفسه ألف مرة ألف رجل آخر ، وكما تثبت الصخرة أمام العاصفة . يجب أن لا يتأثر الحكيم بالمدح أو بالذم ، واحكم نفسك ولا تقاوم ولا تدافع عن نفسك ودع نفسك لتصاريف القدر وتخل عن نفسك ولا تهتم أبداً لما يثيرها . وقد التف ثعبان حول أحد العمال فأمسك العامل مسلته ليدفع عن نفسه ثم ذكر أن القتل محرم عليه وألقى سلاحه . ووهب ابن المليك فسانتارا كل ما يملك لأول سائل غير مستبق ذهباً ولا عبيداً ، بل ولا أولاده الذين غذاهم من دمه ، فلما فر الأولاد وعادوا إليه وهبهم ثانية ثم رآهم بعينى رأسه على أثر ذلك يجلدون بالسياط . وتلك هى الأمثال التى يخطب بها من أعلى المنابر إلى اليوم من يدعون لتقليد البوذيين . وجدير بالإنسان إذا وصل لمثل هذه الحال ألا يكون إنساناً وأن يكون حجراً يستطيع احتمال كل شىء ولكنه يعجز عن أن يحب شيئاً .

وفى هذا الاعتزال التام يجسد الإنسان منبته . لذلك لم يكن الخلاص الذى سعى إليه « ساكيا مونى » هو خلاص نفسه وحدها بل خلاص

الموجودات طرًّا . وقد كان يفكر فى أمرها مثلما كان يفكر فى أمر نفسه . وإنما هو خلاصها الذى أدى به ليعود بعد اتجاهه بكل نفسه مخلصاً للسماء فينغمس فى قرارة تعاساتنا وشقوتنا . بلى « أنت يا من أحطت الناس بالنعم وشملتهم بالعناية ثم أصبحوا لك جلادين وقتلة فغفرت لهم . إيه سيدنا . لقد عطفت حينما كنت دبًّا على رجل ملأه اندفاع ماء الثلوج فزعاً فأخذته وأغدقت عليه من جذور الشجرة وفاكهتها وأحطته بكل صنوف العناية ثم ما لبث أن عاد ومعه رجال يريدون قتلك فغفرت له » . فإذا كان « ساكيا مونى » يسعى فى هذه الساعة كذلك لسلامه فما ذلك إلا ليرينا طريق السلام . ففكرته فى الألم تشمل آلام سائر الناس وفى قرارة حزنه يستكن العطف على من سواه . والعطف على الغير هو الكلمة المرجوة . هو آية الوقت والنبأ العظيم الذى سيرفع أولئك البؤساء من كبوتهم ويعزيهم عن مصائبهم . وهو الذى كانت تنتظره كل تلك القلوب الكبيرة أو البائسة . فإن الإنسان إذا وصل من الألم المبرح إلى أقصى غاياته وسقط إلى الدرك الذى لا صعدة منه فخمد نشاطه وتلاشت فيه شهوات الرجولة ، وهبطت روحه الرقيقة ونظامه العصبى إلى مواضع الاستسلام وعدم المقاومة بسبب ما أصابهما من المهانة ونضب دمعه لكثرة ما أريق منه وهامت على شفاهه المصفرة ابتسامة ضعيفة مكتئبة ثم أصبح لكثرة ما تألم فلا يفكر فى الألم فنسى نفسه وأهملها ، هنالك تراه وكثيراً ما يصعد إلى قلبه صوت رقيق عذب مؤثر وترى ذراعيه وقد هجرتهما قوة النضال يجدان بقية من القوة يمتدان بها نحو البؤساء الذين يبكون إلى جانبه . وهذه الحركة هى التى تهز القلوب وتحتكم فى الأفئدة وتبلغ بالنفس مكان النجاة : ولعمرك ماذا تهمنى الحقيقة المجردة أو الحجج الدامغة بعد ما انقطعت عن الرغبة وعن الأمل ، ثم

ماذا تهمنى المضاربات النظرية العالية . أو كيف لى أن أجاهد مع الجماعات النشيطة بعد ما أصبحت عاجزاً عن الوصول إلى فكرة وعن القيام بعمل ؟ كل هذا إنما هو للأقوياء لا لأمثالى العجزة الضعفاء . وكل هذا شديد وشخصى ضعيف فلا أطيقه بعد أن برحت بى الآلام حتى تركت العناية بنفسى . ولن أجد ضماداً لجراحى فى تطبيق مذهب معقد رواق تطبيقاً دقيقاً ، وإنما ضمادى أن تمر بى يد إنسانية مرًّا رفيقاً يجعلنى أعتقد أن ثمة من بين سائر إخوانى من يهتم بى ويرجو دوائى . وأن أرى معونة إخوانى وتعزيتهم من واجباتى . فالشعور بهذا الإشفاق وتلك المودة ، وبهذه المراهم المشتركة المجتمعة ، هو الذى يسير بالناس وبالخلائق طرًّا نحو الطمأنينة والسلام ، وذلك هو الضماد الشافى . ولقد نشرت أنانية البرهمى والرواقى حول الحياة الإنسانية جوًّا باردًا محملا بثلوج الشتاء فجاءت هذه الريح الدافئة فأذابت الثلج فى ألف موضع منه وأعادت إلى أعضائى المتجمدة المألومة حركتها . ففى لحظة ميلاد « بوذا » قامت بنفس كل الموجودات أفكار المحبة والتعاون وشعر بعضها نحو البعض الآخر بعواطف الأبوة والأمومة . ثم انقلبت الحواثل القائمة ما بين الفِرَق والطوائف والأمم رأساً على عقب ، ونادى « بوذا » إلى سلام الناس جميعاً من ملوك وعبيد وبراهمة وبغايا وطهر وأرجاس ومواطنين وأجانب رجالا ونساء . وانبثت رسله فى التبت ومنغوليا وفى آسيا كلها لهداية عباد الوثن ، وكان الفقراء والوضعاء أفضل عند برهمة بدليل ما جاء فى نصوص قديمة : « ليس هيناً أن يصل الكبراء والأصاغر إلى حظيرة السلام » . ولكن هذا الوصول أكثر مشقة على الكبراء منه على كل من سواهم . ولقد نادى صاحبه المفضل بغياً وأراد أن يشرب من يدها غير معتبر فى لمسها ما ينجسه . وكان من بين المستمعين إلى « بوذا » كناسو الشوارع والمفلسون

والشحاذون والشيوخ الذين هجرهم أقرباؤهم وضعاف العقول والمقطعة أيديهم وأرجلهم والبغايا والغانيات والبنات اللاتى ينمن فى القذر ، بله اللصوص والقتلة . وكذلك كانت كل الرءوس الشقية أو المستبد بها تنحنى بين يديه رجاء نفحة روحية تنالها – وكانت تعاليمه توافق مزاج هؤلاء السامعين . فكان يعلم فى الطريق ويكلم أتباعه فى الأمكنة العامة ويقص قصص الحياة السابقة بلغة سهلة بسيطة ، ويحدث عن الخطايا وعن جزائها وعن أعمال الخير وعن مثوبتها . كل ذلك بلا نظريات ولا فلسفة ولا تمذهب ، ومن غير مطالبة بأى بحث أو تقرير أى عمل . بل كان كل ما يطلبه طمأنينة القلب وسكينته وأن يفكر الإنسان فى نقائص نفسه لا فى نقائص سواه ، وأن يقابل المساءة باللين ، وأن لا يقتل أحداً أو حيواناً ولا عدواً ولا مجرماً وأن يحتمل الشر ولا يرده ، وأن يتسامح مع كل مغايريه فى العقيدة حتى الهراطقة ، وأن يكون براً محسناً حتى إلى الأنعام – وبديهى أن فى هذه التعاليم ثورة تامة على العوائد والأخلاق أقامت على أنقاض شهوات الناس القديمة التى لم تترك أمامهم إلا الهمود والفراغ ، أملا أحيا فى أعماق نفوسهم قوة دافعة نحو العمل .

بعد خمسة قرون من ذلك العهد قام فى الغرب إخوان غزاة الهند بمجهود يشبه مجهود هؤلاء الغزاة ، جددوا على أثره مذهباً يشابه مذهبهم مشابهة لا تجد فى حوادث التاريخ أتم منها . وقد كان ما بين الفرعين القائمين على الجذع القديم من فروق ضئيلة راجعاً إلى ما كان عليه آريو الغرب من خيال أكثر توازناً وأقل عظمة ، ولما لقوه من طقس أكثر اعتدالا وأشد ملاءمة لمرانة العقل . أما فيما سوى هذا فكانت المظاهر العامة لمنتجات الفرعين متشابهة كل التشابه . وظلت أخلاق الرجولة وعوائدها حاكمة

مدى ألف سنة وخمسمائة على شواطىء البحر الأبيض حكمها فى شبه جزيرة الهند . فمتلك الإنسان القوى المسلح الأرض وحرثها وأقام المدائن واستأصل الأجناس الوضيعة أو استعبدها ، وأنشأ القصائد والأساطير والعلوم والأخلاق والفلسفات ثم تربع معجباً بنفسه يشاهد مثالها فى قصص أبطاله وآلهته متصوراً كمال نعمته فى تكميل ملكاته وزيادة سلطانه . وكما طمح البرهمى ليكون إلهاً فى السماء فقد أراد اليونانى والرومانى أن يكونا إلهين على الأرض . ثم انهار عملهم جميعاً بالتغالى فى العواطف التى كانت سبب قيامه . فأصبح الإغريق الشهم الكريم متكلماً سفسطائياً وتطاحنت المدائن الجميلة فيما بينها حتى ضعفت وسقطت فى قبضة البرابرة الهمج المحيطين بها . وأصبح الرومانى النشيط جندياً ثم عبداً لرؤسائه فانقلبت الإمبراطورية العظيمة التى امتد سلطانها بقوة ذراعه على عدد عظيم من الشعوب ، وصارت آلة استبداد منظم وقع هو كما وقع غيره بين عجلاتها ، وقد أهلك الاستبداد الأشراف بعد ما أهلك العامة وقامت القوة التى أعدتها الملكية العسكرية بين هذه النفوس الأسيرة حائلا حديدياً صلباً لا يفلح مجهود فى تحريكه . فلم يعد ممكناً أن يطالب الرجل بعمل ما كان يقوم به من قبل أو أن يكون قوياً جريئاً أو أن يدفع عن نفسه أو أن يرد بالعدوان عدواناً . ذلك بأنه وقع فى الفخ فتعطلت فيه تلك الجرأة القديمة المعروفة فى هذه الأجناس المحاربة الأنوفة – وقد بحث الباحثون يرجون علاجاً لهذه الحال فى البهر وفى الإنزلاق إلى الشهوات وفى الاستسلام المطمئن وفى الباطنية المشوشة وفى أحلام خلق الوجود وفى التأملات الفلسفية وفى سحر المشعوذين وفى نبوءة المرضى ، فلم يحرك ذلك كله إلا الذهن والعصب بينما كان هو القلب الذى يجب هزه بمس محرك جديد دافع للعمل . ولقد

تم ذلك فيما بعد على نحو ما تم فى الهند فأخذت الأخلاق وجهة جديدة كالوجهة التى أخذتها فى الهند « إذا ضربك أحد فلا تُجزِه جرحاً بجرح ، كأمر القانون القديم الذى يحتكم فى الناس من ألف وخمسمائة سنة والذى لم يخلق منهم إلا محاربين وغالباً ومغلوباً . فكذلك ليس يكفى أن تطرح الغضب وأن تنزل عن التأثر وأن تحقر المهانة وأن تحتمل الظلم صابراً على نحو ما يدعو إليه حكماء العصر . بل تلق برفق بين ذراعيك من ضربك وأدر له خدك الآخر ودعه يأخذ مالك وأعطه ما لم يأخذه وأحببه لأنه أخوك . فإن ثمة فوق هذه الممالك المنظورة ملكوت الله ، ملكوت الأمل الأسمى حيث لا ترى إلا رقة وتفانياً فى الغير مخلصاً ، وإلا قلباً واحداً هو قلب الآب الذى يحبكم ويحميكم . » وهذه هى العاطفة الكبرى التى أحيت الإرادة الإنسانية فى أوربا . وهى أكثر تحديداً وأقل تجريداً من العاطفة الهندية . فهى لا تمتد إلى الحيوانات ولا تعتمد على فكرة العدم العام . ولكنها أضبط وأصح من العاطفة الهندية لأنها تدع للعمل والأمل مجالاً أوسع ، كما لا تصل بالإنسان إلى السكينة الجامدة ولا للاستسلام الحسير والعدم الأخير ، لذلك كانت أشد ملاءمة لأذهان أكثر عملية من تلك الأذهان ، ولأرواح أقل من تلك الأرواح مرضاً ، ولخيالات أكثر اعتدالاً ، فهى أوربية وليست آسيوية . على أنها فى أوربا وفى الهند هى على كل حال مركز التقدم الإنسانى ، وعلامة الساعة التى يصبح فيها الإنسان وكأنه حيوان هذبه الألم وقهرته القوة بعد ما أسرف من قوته فيترك عبادة القوى الطبيعية ويستبدل بها إجلال القوى الأخلاقية ، ويتخطى فكرة الطوائف والفرق والامتيازات ليصور أمامه صورة إخاء بنى الإنسان .

## ٣ – النظـــر

إذا بذرت حبة نمت متأثرة فى نموها بعاملين مستقل كل منهما عن الآخر ، عامل القوى الداخلية التى تتكون منها البذرة ، وعامل القوى الخارجية المحيطة بها . فنى دخيلة البذرة شجرة وجهتها النماء . لكن شأن الأرض والجو الخارجين عنها أن يعينا طريق نموها أو يفسداه . كذلك ترى فى كل دين فكرة جديدة لتصور الطبيعة ولتصور خطة سير الإنسان فى الحياة . وهذه الفكرة الجديدة تنمى نفسها بمجهودها الخاص . لكنها فى نمائها تتجه وجهة خاصة بتأثير الظروف المحيطة بها . فالإصلاح الأخلاق يصبح رويداً رويداً لاهوتاً منظماً يسهل على الإنسان أن يميز خلال فروع شجرته الضخمة التى خرجت من البذرة الصغيرة بين ما نشأ عن البذرة وما جاء عن طريق الوسط .

فأما ما يرجع إلى البذرة فى النظر البوذى فاعتبار فكرة العدم مادة الأشياء وفكرة الخلاء ( الفراغ ) منشأ الأشياء وغايتها . وأما ما يرجع إلى الوسط فضخامة وتهتك الخيال الوفير الخصب الذى يكدس الأعداد والعوالم حتى يعتريه الذهول بين مضطرب خلائقه .

وقد خلف « ساكيامونى » مبادئ أخلاقية وقصصاً مطمئنة كما خلف مبدأ التخلى قائماً على فكرة الخلاء . أما أتباعه الدينيون الذين أقاموا بعد الوحدة فى صوامعهم مسلحين بالفلسفة المحيطة بهم ومندفعين وراء ما يبدعه الخيال الباطنى فى تضخمه وانتفاخه فقد أقاموا مذهباً كالذى أقامه « دوريجين » و « دنيس » الأوريوباجى ومجموعة من الأساطير أشبه بأساطير « دانت » و « دفوارجين » .

ويرى أتباع « بوذا » أن ليس ثمة مادة أولى ولا مبدأ يتكون ولا إله خالق سبق الخلق . بل « إن القطع بوجود موجود أعلى خلق العالم وما يحتويه إنما هى من هرتقة المناقضين الست . ففكرة الموجود الثابت القائم بذاته تتنافى ومذهبهم تنافيا تاماً . وليس ثمة سبب أولى وإنما الطبيعة سلسلة لا تتناهى من الميلاد والهلاك واتصال لا نهائى بين أسباب هى النتائج ونتائج هى الأسباب وانحلال وتكون أزلى أبدى خالد . تلك هى وجهة نظرهم العامة التى وصلوا إليها مسوقين من جهة بفكرتهم الرئيسية ، فكرة العدم العام ومن الأخرى بمشهد الأشياء الدائمة التغير . ذلك بأنهم قد أطرحوا الأسباب الثابتة فلم يبق لهم إلا سلسلة النتائج المتغيرة وقد سار خيالهم فى هذا الميدان شوطاً سيرى القارئ الآن مداه .

فى الحيز اللامتناهى عدد غير متناه من العوالم . ولو أن الإنسان أقام جداراً حول حيز يمكن أن يسع مائة ألف مرة عشرة ملايين من هذه العوالم ثم رفع هذا الجدار إلى أعلى قمة السموات وملأ هذا المخزن العظيم بحب الفلفل لما ساوى عدد هذه الحبات نصف عدد العوالم التى توجد فى إحدى ممالك السماء . ويقوم فى وسط كل عالم جبل ضخم ذو سفوح أربعة : سفح من ذهب ، وسفح من بلور ، وسفح من فضة وسفح من زمرد . وهذا الجبل هو جبل (ميرو) الذى يرتفع تماماً أربعاً وثمانين ألف (يودشانا) فوق سطح ماء البحر وينزل مثلها فى جوفه . ويحيط بهذا البحر إطار من صخور مرتفعة يمتد وراءها بحر ثان تحيطه الصخور كذلك وتمتد بعدها بحار تحيطها صخور . ولكن البحار يقل عمقها والصخور يقل ارتفاعها حتى إذا كان البحر السابع والأرض السابعة التى هى أرضنا لم ترتفع الجبال أكثر من ست وسبعمائة (يودشانا) فوق سطح البحر . وهذه الأرض تشمل أربع قارات : القارة الشرقية وفيها يعيش

الناس مائتى عام وطول كل منهم ثمانى أذرع . والقارة الغربية وفيها يعيش الناس خمسمائة سنة وطول كل منهم ست عشرة ذراعاً ، والقارة الشمالية وفيها يعيش الناس ألف سنة وطول كل منهم اثنتان وثلاثون ذراعاً . والقارة القبلية وفيها يعيش الناس مائة سنة وطول كل منهم ثلاث أذرع ويحيط بهذه المنطقة جدار شيد من الحديد تسطع من ورائه شمس أخرى ويمتد بعده عالم آخر . وتقوم فى وسط جبل ميرو من أسفل صخرة ضخمة نحتت فيها . ثمانى (جهنمات) . وفى وسطه من أعلى تبدأ السماء بعالم الرغبة مقام الآلهة الشامل لست سموات ماخلا الأرض ، ويجىء من فوقه عالم فيه أربع مناطق قسمت حسب مناطق الإلهام الأربع . ثم يجىء من فوق ذلك العالم الذى لا شكل له شاملاً أربع سموات كذلك . ويصل الخيال البوذى فى هذه العوالم الأخيرة حداً يكدس معه الملايين منها فوق ألوف الملايين حتى يبلغ جموعاً مدهشة يجعلها بعد ذلك أساساً يصدر عنه لتكديس ما هو أعظم وأضخم . ثم تراه يستمر على هذه الحال بلا انقطاع ولا رؤية حتى يضطرب الذهن ثم لا يدرك شيئاً .

كل هذه العوالم من أسفلها إلى أعلاها مأهولة بالخلائق . وفى أعمق دركاتها أهل (الجهنمات) الثمانى فى طبقات بعضها فوق بعض ويحد أحسنهم حالاً السكاكين والحراب مدى خمسمائة سنة . أما ما ينال الآخرين من فظاعة العذاب وطول مدته فمزعج مخيف . على أن الخلود فى العذاب للتكفير عن الذنوب ليس مقرراً إلا عند سكان الجنوب من البوذيين الذين يحكمون على المتشككة والكفار بالبقاء خالدين حول حائط يمتد فى بحر يحتل خلايا العالم ويلتهم أعضاءهم ويبليها . فى مقابل ذلك ترى البوذيين من أهل الشمال يضيفون إلى (الجهنمات) الثمانى الملتهبة ثمانى (جهنمات)

أخرى من الصقيع يصعد أو يهبط من حل به الجزاء أثناء هذه الأتونات بحسب ما يستحق . ثم يجيء البروناس فى درجة من العذاب فوق درجات أولئك ، جميعاً . والبروناس قوم من العماليق ناشفة أبدانهم ، قبيحة مناظرهم ، واقفة شعورهم ، ذوو بطون عظيمة لا تشبع ، وحلوق أضيق من سم الخياط يتعذبون بأفظع الجوع وأقسى العطش ولا يكادون يسمعون « اسم الماء مرة فى كل مائة سنة » ويأكلون جثث الموتى أو ينهشون لحم أنفسهم . والبخلاء الذين لا يتقدمون لرجال الدين بإحسان هم الذين يصلون إلى هذه الحال التعسة . ويجيء الحيوانات فى درجة ما فوق البروناس ثم تجيء من فوقها الآزوراس وهى الأرواح الخبيثة عدوة الآلهة . وإلى جانب هؤلاء يجيء مختلف أنواع الشياطين من عمالقة غلاظ وقصار وثعابين ضخمة وزواحف لها رأس إنسان وغيلان لها رأس فرس وحيات وطيور وهى تغوص فى الماء أو تطير فى الهواء أو تسعى على الأرض أو تجاور الآلهة أو تقوم على سفوح ميرو . ولكل جنس منها مملكة ولكل مملكة ملك . ثم يجيء الناس فى درجة ما فوق الشياطين وتجيء الآلهة على طوائف وأدنأ هذه الطوائف أندرا وإخوانه من الآلهة العاديين للبرهمة . وآلهة هذه الطوائف يقيمون مسلحين فوق قمة الميرو ويدفعون الشياطين السفلى من غير انقطاع . أما السموات الأربع التى فوق ذلك فلا تمس عالمنا ولا تستضىء بشمس أو قمر بل بنورها هى . وفى هذه السموات توجد البوذات المقبلة التى تنتظر الساعة التى تتقمص فيها للمرة الأخيرة جسماً لتقوم بنجاة العوالم . وهذه المنطقة هى الأخرى واقعة تحت حكم « مارا » أمير الشهوات ومستغوى البوذات . ولا سبيل للخلاص منه إلا بالارتفاع إلى المنطقة التى فوقها والدخول فى عالم الأشكال النقية . وفى هذا العالم وجد البرهمات ثم آلهة النور الصراح وهم

يغوصون فى بحر الإلهام الأسمى معفون من نير التفكير ، ويتخيلون من غير أن تتعاقب عندهم التصورات ، وفوق هذا العالم توجد الكائنات الطاهرة الفاضلة ومن فوقهم المخلصون الذين خلوا عن التحول وصاروا بمنجاة من الإحساس والألم . وفى الدرجة العليا تنفتح المناطق الأربع للعالم غير ذى اللون أو الشكل حيث تحفى الأجسام الأثيرة نعسها وتلك هى سماء البوذات .

وكل مادون هذه السماء الخالدة فى سكينتها واقع تحت حكم قانون التحول والتغير .

هذا ولم تطبق ديانة من هذه الديانات أثناء هذياناتها الشعرية مبدأها الأساسى من عدم ثبات الكائن بمثل ما طبقته الديانة البوذية من القوة ، ولا شرحت فكرتها المبدئية من أن كل كائن حى يحمل فى وجوده بذور موته بمثل دقتها . فهذا العالم ينشأ ويفنى ليحل محله سواه ليفنى هو الآخر ويجىء من بعده غيره ثم يفنى كذلك وهكذا بلا انقطاع ولا غاية . وكل نشوء وكل فناء يمتد إلى أجل من الزمان ما أعظمه . والدهر ( الكالبا ) هو الزمن الذى ينقضى بين إحدى تلك البدايات وإحدى تلك اللانهايات . وهذا الدهر بالغ من الطول حتى لو أنك أمررت قطعة من أرق حرائر برانس مرة كل مائة سنة على صخرة طولها وعرضها وارتفاعها ستة عشر ميلا وظللت تكرر ذلك حتى تصبح الصخرة وحجمها حجم بذر الأمبة « المنجو » لما انقضى ربع مدى الدهر . وهذا الزمن الكبير يشمل أربعة أزمنة دنيا يتم الهلاك فى أثنائها ستا وخمسين مرة بالنار وسبع مرات بالماء ومرة بالرياح . وقبل وقوع كل هلاك بمائة ألف سنة ينذر الناس به ولىّ يدعوهم للتوبة والاستغفار ، وأعظم مرات الهلاك هى المرة الأخيرة التى

تسببها الرياح « فهى تصل من الفظاعة إلى حد أن لا تبقى من العالم كله ذرة واحدة متماسكة . ويبقى الفضاء إثر كل هلاك خالياً عبوساً . حتى إذا حانت الساعة قامت ريح فشقت سحاباً فسقط منه المطر فأصبحت المياه شلالات فاستلأ بها الفضاء حتى يصبح أقيانوساً تحمى الرياح شواطئه ثم تستقر الأجزاء الصلبة من بعد ذلك وتجمد بفعل الرياح . وتنحسر المياه عنها فتظهر المناطق العليا : مناطق المخلصين والبراهمة والآلهة واحدة بعد الأخرى . أما سائر العالم فيصبح آهلا بعد ذلك بالخلائق العليا التى بقيت بعيدة عن تلك الصدمات ولما يتم بعد نقاؤها وتدرج هذه الخلائق يكون فى مراتب شتى ؛ فهى تتقمص بادئ الأمر صورة موجودات بريئة سعيدة غير ذات شكل ولا جنس وغير محتاجة إلى شىء ، بل هى ثورية هوائية . ثم تثقل الأجسام من بعد ذلك وتفسد من غير شعور منها وترتكس فى حكم الرغائب والشهوات فتتقاصر حياتها إلى أربع وثمانين ألف سنة بعد أن كانت غير ذات نهاية أو تكاد . وهنا يتزايد الفساد فتقوم دعامات الملكية والحكومات والطوائف ويتدهور آلاف من الأحياء تثقلهم خطيئاتهم فيصبحوا ومنهم الحيوانات وشياطين الجوع ومن صبت عليهم اللعنة . وعند ذلك يصبح العالم كما تراه اليوم ويبقى كذلك ربع دهر يتراوح بين درجات مختلفة من الهبوط والنهوض متروكاً لنفسه طوراً وتعينه البوذات طوراً آخر . وفى خلال هذا الزمن تتراوح الحياة الإنسانية ما بين عشر سنوات وثمانين ألف سنة بحسب درجات شرور الناس أو فضائلهم – ونحن فى هذا الزمن فى عصر من أقسى العصور . وكذلك تدور عجلة الوجود الكبرى . ولو نظرنا – ونحن فى ذلك الركن الصغير الضيق الذى تشبث به قوم على برزخ – إلى هوى الزمن عن جانبينا وإلى وهدة الفضاء الهائلة حولنا ،

إذن لما رأينا فى كل النواحى إلا إمعاناً فى تجدد التطور الخالد تجدداً يجل عن كل حد .

أى قوة تحفظ ذلك التجدد ؟ هنا تظهر الفكرة الخلقية التى يقوم عليها المذهب من جديد . فهذه القوة هى الفضل والنقص وهى الموجودة وحدها ، والموجودة حيث يكون الوجود . وليس فى هذه الفكرة شىء يشابه الأفكار اليونانية أو المحمدية أو المسيحية أو الحديثة . فليس ثمة قدر مستقل يحكم حياة الكائنات وإنما يصنع كل كائن قدر نفسه بفضيلته أو برذيلته . وليس ثمة قوانين طبيعية تربط الحوادث وإنما يربطها القانون الخلقى . وليس ثمة إله مستبد يوزع الخير والشر بقوانين تحميه ، ولا إله عادل يوزع الخير والشر مثوبة أو جزاء ، ولا إله يدخل بين الفضيلة والسعادة أو بين الشقاء والشر ليفرق بينهما أو ليجمعهما . وإنما تتصل السعادة بالفضيلة طبعاً ، والشقاء بالرذيلة طبعاً ، كما يتصل الظل بالجسم . وكل عمل فاضل ، وكل عمل قوة من قوى الطبيعة . ومجموع الأعمال من فاضلة ومرذولة هو وحده مجموع قوى الطبيعة . « والنقص العام الذى يثقل مجموع الأحياء هو السبب الحقيق لهلاك العالم . والفضل العام الذى تمتاز به كل الأحياء هو السبب الحقيق لتجدد كيانه » . ويتصل كل عمل بصاحبه اتصال الثقل أو ما يضاده . فالعمل السيئ يجر صاحبه لا محالة إلى الدرك الأسفل ، كما أن العمل الصالح يرتفع لا محالة بصاحبه إلى عليا درجات العوالم . وعلى نسبة هاتين القوتين يتحدد مكان صاحبهما على أثر كل ميلاد ويتكيف حظه عند كل تقمص كما يكون رجحان إحدى كفتى الميزان بنسبة ما يكون فى كل منهما من الأثقال . فما دامت الروح تحت سلطان الشهوة فهى تولد من جديد . وكلما ازداد سلطان الشهوة عليها كانت

عودتها للحياة أتعس حالا وأشق ، والتعلق بالأشياء وما يترتب عليه من سيئ الأعمال هو وحده سبب تجدد الميلاد ، ويكمن فيه ذلك الثقل الذى يدفعنا إلى دركات هوة الحياة السحيقة الأليمة بقوة . ولهذا كان فى مقدورنا أن نتخطى القدر العام بإعدام هذا التعلق فننجو من تجدد الميلاد ونصل إلى الخلاص الأخير . وهذا مقام من الرفعة فى العالم بمكان ولم يوضع الإنسان فيه أبداً . والإرادة عند البوذيين قوة لا حدَّ لها تسمح للإنسان أن يصل إلى الذروة من الأشياء وأن يدخل النرفانا وأن يسمو إلى ما فوق الآلهة .

أما تلك السماء البديعة وهذا العالم غير ذى اللون ولا الشكل ، حيث تقوم البوذات الكاملة وحيث تنهزم الطبيعة ويتم الخلاص ، ففيها مناطق أربع : منطقة فضاء لا حدود له حيث تمتد الحياة عشرة آلاف دهر كبير . ومنطقة الحكمة لا حدود لها حيث تمتد الحياة أربعين ألف دهر كبير . والمنطقة التى لم يبق فيها شىء مطلقاً وتمتد الحياة فيها ستين ألف دهر كبير . والمنطقة التى لم تبق فيها فكرة ولا لافكرة وتمتد الحياة فيها ثمانين ألف دهر كبير . ومن بعد ذلك تمتد النرفانا واللاشىء الصراح والفناء الكامل . وتدرج المناطق على هذه الصورة يبين لنا خطوات تقدم الصفاء الباطنى . فترى التأمل يتضاءل ويفنى شيئاً فشيئاً حتى يصل رجل الدين بعد تركيز فكره عند نقطة ثابتة وبعد وقفات عدة إلى أن يطرد من ذهنه أفكار « المقاومة والشكل والاختلاف » وإلى أن يقصر تصوره على الفضاء الفرد الذى لا حد له ثم لا يلبث هذا الفضاء على عظيم بساطته أن يفنى هو الآخر ولا يبقى منه أمام نظر المتدين إلا الفكرة غير المتناهية ، أو بالأحرى التصور غير المتناهى ، ثم يختفى ذلك كذلك ولا يبقى أمام نظر المتدين شىء مطلقاً .

وعند ذلك يقف تصوره ولكنه لا يزال قاصراً عن الجزم بأن ليس ثمة شيء ، وهذا الجزم شيء فى ذاته ، فيعدم الجزم أيضاً . وعند هذا المرتقى لا تبقى فكرة ولا نفى لفكرة « بل يقف الفكر والتصور » ويكون الذهن قد أحل الفضاء فى نفسه ملاشياً . واحداً بعد الآخر ، الأشياء المختلفة والأفكار المختلفة وكل شيء وكل فكرة حتى تتبخر مادته وحتى يصل تحت هذا الامتصاص الشديد إلى درجة العدم الصرف . وتلك هى الغاية والتمام والكمال الأعلى . فالخير الأعظم ليس فى الخروج من الحياة فحسب ولكن من الوجود كله . وإلى هذا الخروج تصبو البوذات خلال ملايين تطورات وجودها فتبلغه بعد تضحيات وأنواع من الزهد لا حد لها ، من ترك المال والحياة والجسد ، بل ومن ترك جسد وحياة أقرب من يحبون من زوج وولد .

ويجب لكى نفهم مثل هذا المذهب أن نقلب كل عاداتنا الغربية رأساً على عقب ، وأن نمحو كل الألوان المظلمة التى تحيط بها فكرة الفناء ، وأن لا نعبر بما عبر به باسكال من أنا نوضع أمام بؤسين متعادلين حينما ندعى إلى « الاختيار القاسى بين البؤس الخالد والفناء الخالد » فإنما تلك قواعد تصلح للأجناس القوية النشيطة المتحمسة فى التمسك بمطالبها والتى تحفز جودة طقسها أو قسوته نفوس أهلها وتدفعهم ريح القوة وروح الأمل إلى الأمام . أما أساس المذهب فى الهند فقائم على أن التغيير يدعو للألم وأن الرغبة أس الشقاء وأن الحياة شر وأن فكرة السعادة تقابل الخلاص والطمأنينة . لذلك كانت الصورة المرضية التى تدور فى نفس الإنسان أثناء أحلامه أن لا يزعجه مزعج ، وأن لا يحس شيئاً ، وأن يبقى أبداً فى طمأنينة متشابهة . صحيح أن الأذهان الغفل وعامة الشعب ، وبنوع

خاص من سكان آسيا الشمالية الخشنين . أولئك كلهم لا يتصورون هذه العقيدة فى صفتها التجريدية ويأبون إلا أن يروا فى الترف طمأنينة مادية ونوعاً من السرور المحسوس . ولم يعارضهم أحد فى هذا التصور قصداً وذلك لأن كل مبدأ يراد به أن يكون عاماً مضطر للتوافق والتلابس مع سواد الشعب . على أن الفكرة الأصلية باقية على الرغم مما يغشاها فى بعض المواضع من التغيرات . وهى كما هى لا تزال ذات جمال يجذب قلب الإنسان ويجعله يحس لذة كبرى حين يصور لنفسه هذه المناطق الرفيعة المطمئنة البعيدة كل البعد عن أن تصل إليها الاضطرابات الأرضية . وهذه الأجسام الأثيرية التى ترتفع من سماء إلى سماء فتزداد أثناء ارتفاعها طهراً ونوراً وهؤلاء السعداء تظل فكرتهم ثابتة مطمئنة خلال آلاف آلاف القرون ويشعرون أثناء ارتقائهم بتساقط حواجز وجودهم لتفنى فى الفراغ الهائل . وهم فى ذلك كنقط الماء تبقى آلاف الملايين من السنين تثلج وتسيل وتمسح وتضطرب باضطرابات أرضنا العظيمة ثم تنتهى بأن ترتفع بخاراً يتهادى بديعاً تحت الشمس التى تحيله ذهباً ثم تزداد ارتفاعاً وندرة حتى لا يظهر إلا كالحجاب الشفاف الناحل ويستمر فى ارتفاعه بعد ذلك حتى إذا وصل إلى المناطق التى لا تصلها الضجة والتى ينتهى فيها التغير وتنتهى فيها المادة تلاشى فى فضاء الجو العظيم من غير أن يحس بتلاشيه .

ولقد وصلوا إلى أبعد من هذا مدفوعين بما يمتاز به النظر الهندى من التعمق الذى يصل من كل مذهب إلى أقصى غاية يمكن الوصول إليها . وإنهم والحق يقال نوابغ فى العبقرية التجريدية حتى لترى اليونان إلى جانبهم ، على ما بلغوا من دقة ، على جانب من الاستحياء والحيطة . والإنسان لاشك فى حل من أن يقول غير مبالغ إن الذهن الإنسانى لم يخترق

أعماق الأشياء وجوهرها إلا على شاطئ الجنح والأسيرى ، فقد طرحت المسائل العليا هناك من غير مبالاة بما يترتب عليها من النتائج الطائشة . أما فيما سوى ما هناك فلم يفكر أحد فى إمكان عرض هذه المسائل . وقد أقدم الفلاسفة البوذيون على المساس بالغاية التى يرمى إليها مذهبهم ، ولو أنك عالجت طبيعياتهم المبتذلة ومناقشاتهم العوجاء ووصلت من ذلك إلى تبين آرائهم العامة إذن لرأيت أنهم ، على الرغم من أسلوبهم ، ومن ثرثرتهم التافهة ، لم يخشوا شيئاً وأنهم فهموا كل شيء : فهموا إمكان حدوث التغير وإمكان كون الموجود مع محتم انقطاعه عن الوجود أو إمكان ابتدائه إذا لم يفن . وكيفية انقلاب كل من الوجود والعدم فى لحظة معينة إلى ضده بدل بقاء كل منهما على طبعه . وكيف نفهم أن جوهر الشيء ينحصر فى مناقضته لنفسه وفى إعدامه إياها ؟ وهذه المسألة الأخيرة نتخطاها نحن اليوم ، بل ولا ترد ببال الأكثرين من مفكرينا الذين يدعونها جانباً فى عالم الإطلاقات العقيمة المجردة مع أنها هى أم كل المسائل . وفيها فصل البوذيون - بقوة منطقية تدل على مبلغ إحساسهم بصعوبتها - قصدهم أن الوجود وكل الشرور تنتج عن اثنى عشر مبدأ ، وأنه إذا أمكن إعدام أحدها انعدم ما يتبعه مثلما يقطع الرجل الشجرة عند ارتفاع معين منها فيأتى بذلك على كل الفروع الناشئة فوق هذا الارتفاع . والجهالة هى السبب الأساسى للشرور . ولا يقصد بالجهالة ما تعارف الناس عليه منها ولكنما يقصد بها ذلك الخطأ الأصيل الذى يجعلنا نعتبر أن ثمة شيئاً حقيقيًّا . فذلك هو الوهم القديم وهو أصل الوجود وكل بلاياه . إذ ليس ثمة شيء حقيق ، وليس ثمة وجود ، وإنما الكل فراغ وفضاء .

وعلى هذه النظرية بنى مختلف فلاسفة البوذيين وشادوا طبقة بعد طبقة .

فقرر بعضهم أن الأشياء لا وجود لها إلا فى البرهة التى تراها فيها . وقرر آخرون أن الأشياء لا وجود لها البتة وأن ليس من شىء خارج عن الإحساسات الداخلية . وقرر غير هؤلاء أن هذه التصورات نفسها لا وجود لها وأن ليس فى داخلنا ولا خارجاً عنا إلا اللاشىء والعدم المطلق — وفوق هذا الفضاء تموج مظاهر غاية فى الغرابة يمتد فى أقصاها سواد عظيم ساكن تنشر فوقه خزعبلات بأشكال وألوان مضطربة . فمن اخترق أعماق هذه الحقيقة وجد أن لا معنى لكلمات الشباب والموت والنور والظلام والشكل والحجم والزمان والمكان ورأى أن كل الصور وكل الأفكار العامة ليست إلا أحلاماً مضحكة . وإذ ذاك يصير شأنه شأن البرهمى الذى يرى العالم سراباً خداعاً يموج على سطح الموجود الثابت ، وآلا كاذباً يلمع فوق العدم الخالد فى سكينته فيحتقره ويناى عنه بجانبه . وبذلك يتم خلاصه وتتحقق نجاته ويرتفع فوق كل الأعمال ويمسك بيده الحقيقة العليا . وتلك هى غاية ارتفاع الحكمة « وشرع الشرائع » والمذهب الكمين فى النفس بحيث لا تعتبر القواعد المتعارفة إلا تحضيراً مبدئياً . وأنت ترى أن ليس هنا من شىء ناقص ، فلا البحث الصوفى الذى يحسب الوقت ويقيسه إلى حد يذهل البحث دون ما كرس من إعداده . ولا البحث الفلسفى الذى يستخلص المبدأ ويتبعه حتى يصل عند منتهى قواعده إلى الذهول وسط كل ما أنتج بسبب عظم المجهود الذى قام به

## ٤ – العمـــل

توجد فى الأنظمة كما توجد فى المبادئ قوة كمينة هى السبب فى نموها ، فالرسول يتحول ويتكمل كما تتحول كلمته وتتكمل حتى ينتهى الأمر بأن تقوم الكنيسة إلى جانب اللاهوت ( الكلام ) . لذلك ، فبينما يقوم القائمون بجمع المذهب وترتيب أجزائه وبالتعليق عليه بمعونة المنطق والخيال والعلم العصرى وبتفخيمه بالشعر وبتثبيته بالقواعد وتعظيمه بالفلسفة ، وبينما تصبح الأقاصيص والنصائح والخطب التى يلقيها المعتزلة تحت الشجر مجموعاً ضخماً من مضاربات نظرية تشمل كل ما فى العالم من منظور وغير منظور ، يقوم من الجانب الآخر من يعنى بوضع النظام وبتحديد واجبات أعضائه ووظائفهم وبترتيب ذلك وتوسيعه حتى يرى العالم حكومة عظيمة تقوم رويداً رويداً مشتملة الجمعية بأسرها فى دوائرها المتباينة . وكذلك تنتهى الحال بأن يقوم البناء الكنائسى . وقد قام العمل المستمر على مر القرون إلى جانب البناء الروحى ، يتقدمان جميعاً إلى الإرادة وإلى الفكرة الإنسانية ويتحكمان فيهما ويصبحان للإنسان ملجأ وسجناً .

والطريف والجوهرى فى نظام « ساكياموني » أنه أنشأ نظاماً جامعاً للمتدينين . فقد كان المتصوفة والمعتزلة موجودين من قبله ، لكنه كان أول من جمع هؤلاء المشتتين فى وحدتهم بأن نادى إليه كل ذوى العزم من الرجال بلا تمييز بين جنس أو طائفة . ثم أنشأ منهم نظام متسولة اعتزل أهله الملك والأسرة ونذروا الفقر والطهر ، فكانوا النواة التى أظهرت اتفاق النظام الأساسى مع المبدأ الأساسى اتفاقاً يجعل الأول يقتضى الثانى اقتضاء ويظهره

محسوساً وينبني عليه بدقة لا نجعل محلا للاختلاف بينهما إلا بمثل ما يختلف الظاهر عن الباطن . إنما تتكون مثل هذه الجماعة لتنزع الإنسان من أثرته وأنانيته فتسلمه إلى التقشف والزهد . لذلك كان من زهد من الجماعة متسولا دينياً .

وفى تلك العصور القديمة سمح للناس من كل الطوائف والمراكز والأعمار كما سمح للأرجاس والمجرمين والشيوخ والمرضى أن ينضموا للجمعية الجديدة ماداموا يؤمنون ببوذا أو يهجرون العالم ، أما المتدينون فلم يسمح لهم أن يلبسوا إلا ملابس قذرة مكونة من رقع تجمع من المقابر ومن فوق أكوام القذر ويخاط بعضها إلى بعض . وقد أقام بعض هؤلاء المتدينين فى الغابات ، والتجأ بعضهم إلى جذوع الشجر ، وظل آخرون فى الفضاء ، ونزل البعض فى المقابر . ذلك أنه كان من واجب المؤمن الصحيح الإيمان أن يشابه حيوان الغاب فلا يستقر إلى مأوى ويطعم غذاء فى غير المكان الذى أطعم فيه اليوم وينام أنى وجد . ولكن المتدين كان يحيط نفسه دائماً بجماعة من الصحاب ليؤدى ما كان مكلفاً به من تعليم الناس الحقيقة ودعوتهم إلى الدين الجديد . ثم تطورت هذه الجماعات الصغيرة المتجولة من غير شعور منها وأصبحت جماعات كبيرة ذات مقام ثابت . ونزل المعتزلون الملتجئون إلى الغابات من عزلتهم وتضاموا احتماء من شرور البراهمة . ولما كانت النساء كالرجال مدعوات لاعتناق الحياة الروحية فقد كن مدفوعات بطبيعة جنسهن للاحتماء فى الجدران ، واضطر المتقشفة أيضاً للدخول إلى المدن إبان فصل الأمطار . وبذلك انتهى أمر الجماعات الدينية التى كانت تعمل لإقامة الدين فأصبحت لها مراكز ثابتة . وعلى هذا النحو تكونت الطوائف وقامت الكنيسة . ثم انتظمت الكنيسة رويداً رويداً فرسمت قوانينها ووضعت قواعدها وقررت شرائط الانتساب لها .

وغالب الأمر اليوم فى من يتقدم لهذه الكنيسة أن يكون طفلا قد حلق رأسه واغتسل ليحضر أمام القسيس الذى اختاره أباً روحياً له فيبدى إرادته فى التنصل من الأشياء فيلبسه القسيس الثوب الأصفر ويقص له مؤخرة شعره ويلقى عليه القواعد العشر لدراستها . ويبقى هذا الفتى إبان تمرينه تلميذ أبيه الروحى وخادمه . فإذا بلغ العشرين من العمر وتعلم عدداً معيناً من الطقوس والصلوات رقى متديناً ودفعت إليه المظلة وتسلم الوعاء المعد لتلقى الإحسان وارتدى صدرية وقميصاً ينزل إلى ركبتيه ومعطفاً يعلق على كتفه الأيسر ثم ذهب متسولا يأخذ فى وعائه الطعام الذى يدفع إليه ويأكله فى الوعاء نفسه ، وذلك كل ما له وما عليه ، لأن القاعدة المقرر عليه اتباعها تدفع به إلى التخلى عن كل شىء .

وهو – جرياً على هذه القاعدة – يترك أهله ويصبح ولا وطن له . ويحتم عليه أن لا يبكى موت أبيه ولا وفاة أمه . ويظل ولا زوجة له ولا ولد . فإن كان له زوجة أو ولد تحتم عليه تركه لأن الخطر على المتعلق بزوجة أو ولد أو مال أو بيت أكبر من الخطر المتعلق على رأس المسجون المغلل فى الأصفاد . فقد تصادف هذا الأخير فرصة سعيدة تخلصه من سجنه على حين يبقى الآخر كمن يكون بين فكى نمر . ثم إن أعمق أصول الشر اشتهاء المرأة ، ولو أن فى الإنسان شدة وقوة مثل ما فيه من شهوة ما كان لأحد إلى الخلاص من سبيل . فلا تنظر أيها المتدين إلى النساء ، وإن لاقيت امرأة فاغضض من طرفك ولا تخاطبها ، وإن أنت خاطبتها فاذكر دائماً فى دخيلة نفسك أنك متدين وأن من واجبك أن تكون فى هذا العالم الفاسد كالزهرة النقية البياض . ويجب أن تنظر إلى المرأة العجوز وكأنها أمك ، وإلى من هى أسن منك وكأنها أختك الكبرى ، وإلى من هى أصغر

منك سنًّا وكأنها أختك الصغرى . والأوامر البوذية فى هذا الشأن عدة : فلا يصح لمس يد امرأة ، بل ولا يد فتاة ولا الدخول فى زورق تمسك امرأة بمجاديفه ولا أخذ الإحسان من يد امرأة .

هذا والأمر فى شأن التملك يوازى الأمر فى شأن الملذات صرامة وشدة . فليس للمتدين أن يمتلك سوى أشياء ثمانية : فالقطع الثلاث التى يتكون منها لباسه ، ثم مشد وسطه ، ووعاء الإحسان ، وقدر الماء ، وموسى وإبرة . وعليه أن يعيش من الصدقة من غير أن يطلبها وإنما يتقدم بوعائه من غير أن يحدث أى حدث أو حركة تدل على وجوده ، ومن غير أن يبدى أنه جائع ، ومن غير أن يطلب شيئاً بإشارة أو بحركة أو بكلمة . ثم إنه يرتكب خطيئة إذا هو أخذ أكثر مما يلزم لأكله . وليس من حقه أن يطعم شيئاً بعد الظهر أو أن يتناول الطعام للذته . وإذا مرض لم يكن له أن يطلب دواء . وليس له أن يأخذ ذهباً أو فضة أو أى متاع آخر ، فإنما للدير وحده حق التملك .

أما الأمر الثالث الخاص بالطاعة فالتشدد فى شأنه أقل منه فى شأن الأوامر الأخرى . ولئن وضعت القواعد المتدين تحت أوامر رئيسه وألزمته فى غير موضع الطاعة والاحترام فإنها كانت من ناحية أخرى تأمر بوجوب التوفيق وتعتبر كل قائل بالتفرقة بين المتدينين مرتكباً لإحدى الخطيئات الخمس القتالة .

ذلك هو الإنسان فى نظر البوذية العميقة ، غير أن للتهاون والفساد فى الحياة العملية ولا شك نصيباً . وقد عمل الجدل ليطوى القواعد طيًّا تتفق به مع الطبيعة كما انتشرت المفاسد التى نخرت أديرتنا أيام العصور الوسطى فى معابد سيلان والتبت والصين أينما انتشار . لكن ذلك كله لم

يمنع فكرة بوذا أن تتم ولم يحل دون نظامه أن يغمر الإنسان كما تغمر « المونة » البناء فتسد فيه كل منفذ يمكن أن تنفجر منه ينابيع الشهوة أو قوة الرغبة .

والآن فما هو مصير هذا الإنسان المنظم المخفف الشهوات . وماذا ترى عساه يصنع ؟ إن كل تغيير فى الطبيعة الإنسانية يجر إلى تغيير يقابله فى الجمعية الإنسانية ، ومصلح الفرد يصلح الجماعة بالتفاعل . لذلك جر تلطيف الفرد إلى إدخال السلام على الحياة الاجتماعية فحظرت التضحيات الإنسانية التى كان البراهمة يقومون بها وألغى حكم الإعدام بشهادة السائحين الصينيين الذين زاروا الهند فى العصور الوسطى وانقطع الناس عن التضحية بالحيوانات وهجر الملوك والأمراء الذين اعتنقوا المذهب الجديد مسارح الصيد الفتاك . ثم غلا المذهب بعد ذلك حتى لم يكفه منع حروب الاستيلاء فمنع كذلك حروب الدفاع . أما الصدقة فقد صارت واجباً يؤدى حتى إن ملوك البوذيين فى اجتماعهم العام كل خمس سنوات كانوا يعطون كل ما توافر لديهم ، بل وجواهرهم ، للمساكين واليتامى ومن لا عائل لهم ، وذلك عدا ما كانوا يعطونه للمتدينين . ثم إنهم كانوا ينشئون المستشفيات وملاجئ الفقراء والتكايا ويغرسون أشجار الفاكهة ويحفرون مجارى الماء للسائحين وعابرى السبيل . وكانوا يقيمون ملاجئ للحيوانات كما كان بعض الأتقياء فى سيام ومنغوليا يفتدون العصافير والأسماك ويعيدونها إلى حريتها . وكان غير هؤلاء يبنون ملاجئ يضعون فيها الطعام لحيوانات الغاب خصوصاً إبان فصل نتاجها .

على أن ما كانت تنطوى عليه هذه الجملة الأخلاقية من التسامح كان يزيد أمرها غرابة ؛ فقد كان البوذيون حسنى الظن والرأى فى الديانات

الأخرى ، وكانوا يعتبرونها جميعاً أشكالا دنيا من الحقيقة الحقة حتى لقد أمر « درما سوكا » أول عظماء ملوك البوذيين و « قسطنطين » الديانة الجديدة بتبادل الاحترام والوئام بين جميع الطوائف وبأن يكون أتباع كل مذهب أغنياء فى الحكمة سعداء بالفضيلة ، ثم ذهب البوذيون لأبعد من هذا فامتدت عاطفة المحبة عندهم إلى كل الأجناس كما امتدت إلى كل الطوائف وصار الأجنبي يعامل بينهم كما يعامل ابن الوطن ولا يبعد ولو كان مبشراً مسيحياً . ولقد شرب السائح « تربز » الشاى فى وعاء كان يشرب فيه اللاما الأكبر . ولم يبق عندهم طهار ولا غير أطهار .

وقد كان من أثر ذلك كله أن استفادت الحياة العائلية من احتكاكها بالقانون الجديد على الرغم من اعتباره إياها فى المحل الثانى ، فقد جاء فى هذا القانون : « خير أن يكرم الإنسان أباه وأمه من أن يخدم آلهة السموات والأرض . ولو أنه حمل أباه على كتف وأمه على الآخر مدى مائة عام لما جزاهما بذلك عما قدما إليه » فكذلك قد تحسنت حالة النساء وزال اعتبارهن رقيقات كما كان الشأن فى البلاد الإسلامية ، أو « أوعية رجس » كما كن يعتبرن فى البلاد البراهمية ، وسمح لهن بالخروج والتزاور وطرح الحجاب ، وأصبح الزواج من واحدة قاعدة وأمراً .

وليحيد الإنسان بكل التطور الذى حصل يتحتم عليه أن يلاحظ ما تم فى منغوليا والتبت وسيلان والممالك الأخرى التى امتد سلطان الدين الجديد فيها . فكلنا نعرف « جنكيزخان » و « تيمورلنك » وقسوتهما وتخريبهما ، ونعرف ما شادا من أهرامات حجارتها رؤوس الرجال ، ومن أبراج جدرانها الأجساد وملتها الدماء . أما اليوم فجرائم القتل والنهب نادرة فى منغوليا ندرتها فى أوربا المتمدينة ، وكذلك أصبح اليوم أهالى التبت

الذين ظلوا تحت تأثير طقسهم العبوس العقيم فى درك الوحشية المخجلة والذين كانوا يأكلون موتاهم كأنهم ذئاب الثلوج الجيـاع - شعباً رقيقاً متعلماً ، بل يكاد يكون متمديناً . أما أهالى سيام فقد رقت فظائع ضغنهم وخفت اعتداءاتهم الدموية وعنتهم وقسوتهم إلى حد أن لم يبق فى بانكوك – وهى مدينتهم الأولى يقطنها أربعمائة ألف من السكان – نزاع ولا شجار ، وأصبحت جريمة القتل فيها حادثاً غريباً لا يرى أغلب الأمر مرة فى كل مائة سنة . والخلاصة أنك فى حل من أن تقول إنا لو جمعنا كل ما فى حياة آسيا المدنية والمنزلية اليوم من دعة ورقة لكان لنهر البوذية الحظ الأكبر من ماء بحر السلام .

على أن البوذية لطفت الإنسان باستهلاكها نفسه . وقد كان شأنها فى ذلك شأن الإنسان يصل بالحيوانات المتوحشة من أثوار وأعنز لتكون نعاجاً وعجولا . تحبس فى حظيرة لتعيش عيش الإخاء وتعاد إلى مرعاها ساكنة مطمئنة الخطى . فإذا صح أن هذه الحيوانات تصبح فى حالها الجديدة أقل من قبل إضراراً بعضها ببعض ؛ إلا أنها تصبح مع ذلك خلائق محتقرة وضيعة . ولو أنك قارنت الكتابات البوذية بالكتابات البرهمية لهالك الفرق من أول نظرة . فقد اندثرت فخامة شعر البورانات ، وخبا الاندفاع ، وخمدت تلك القفزات الذهنية التى كانت تحيط فى لحظة بالسماء والأرض والعالم كله وتشترك فى عظمة الطبيعة وخصبها ، واضمحلت عظمة الشعر ورواده ، وخفتت روح « مانو » العظيمة وذهبت رقة الرباعيات الشهية وولت تلك القوة النادرة التى كانت للعاطفة وللإبداع القديم . وأصبحت الكتب البوذية – ومعظمها من كتب القساوسة – مسهبة مضطربة تذكرنا بسقوط القرن الخامس عشر المدرسى وبهوس الثرثرة البيزنطية . ودل عدم

تماسك الأسلوب على أن الإنسان أصبح لا يستطيع التفكير فجعل يعيد أدلته ويكررها بتطويل وإملال . وصار الحوار والجدل عنده أشبه بما يكتب فى كراسات التلاميذ ؛ ولم يبق له شيء من الآراء المحيطة العامة الملهمة للحظتها ، وانقطع كل جميل وكل عظيم عن أن يدخل إلى نفسه دخول البرق فى النظر . ووقف عند تكديس المكررات تكديساً يخيل إليك معه أنه جالس يعد ويعد ملايين الملايين حتى يذهل تحت أكداس الأعداد ، ولم يبق لبوذا على نحو ما يصوره البوذى فوق محرابه شيء من الرجولة وإنما هو جسد رخو سمين يشبه صدره وبطنه صدر المرأة وبطنها ، وينم مظهره عن سكون بليد وطمأنينة راضية يصلان إلى حد الابتسامة البلهاء .

من السهل أن يفهم الإنسان أن أمثال هؤلاء الرجال لا يمكن أن يكونوا قد وقفوا فى وجه السلطة ، بل ومدوا بأعناقهم للاستعباد مثلما فعل أهل القرنين الرابع والعاشر فى أوربا . وكما انشطرت الجمعية المسيحية فى القرنين الرابع والعاشر كذلك انشطرت الجمعية البوذية إلى شطرين : سواد الشعب وتلك هى الطائفة المنحطة التى ظلت مرتبطة بالعالم وبالأسرة وبالعمل وبقيت عاجزة عن الوصول إلى الدرجة الرابعة من درجات القداسة . والمتدينين وتلك هى الطائفة الرفيعة العاطلة غير ذات الأسرة والتى هجرت خيرات الأرض وشغلت بتحصيل الفضائل الروحية .

ورجل سواد الشعب مكلف أن يطعم المتدين . وقبول المتدين الإحسان من رجل السواد إحسان إليه . ذلك بأنه لو أتيح لأحد رجال الشعب أن يملأ بالجواهر السبع ألفاً من ثلاثة آلاف العوالم ثم قدمها لمتدين لما عدلت شيئاً إلى جانب الخزائن الروحية التى يشركه المتدين فيها بقبوله عطاءه . وكلما ازداد المتدين قداسة كان العطاء أكثر مثوبة . لذلك كان إطعام

متدين أكثر مثوبة من إطعام ألف من سواد الشعب المؤمنين . وطعام قديس من الدرجة الرابعة[١] أكثر مثوبة من إطعام ألوف من سواد المتدينين . وإطعام « بوذا » فى يد بوذيه أكثر مثوبة من إطعام مئات الألوف من متدينى الدرجة الرابعة . وإطعام بوذا كامل أكثر مثوبة من إطعام مائة ألف من البوذات المبتدئين . ويكفى أن يلقى الإنسان النظر على هذا التدرج العددى وحده ليرى مبلغ ما كان لإكليروس البلاد البوذية من المكانة وما حصلوا عليه من ثقة . ثم إن السواد من أهل منغوليا والتبت المتحمسين كانوا يركعون أمام المتدينين المشهود لهم بالقداسة رجاء قبول ما يقدمونه لهم من النذور . وكان المتدينون والمتدينات يقدرون بخمس عدد سكان التبت وبثلث سكان منغوليا . كذلك نص فى الشرع على أنك تصل إلى أرفع درجات الحكمة إن أنت أكرمت اللامات ؛ كما أنك تضيّع . إذا أنت واجهت المتدينين بإهانة ، كل ما كسبه من فضائل مدى آلاف عدة من وجوداتك » . وهذا النص يزيدك بياناً كيف كانت حال الجمعية الإكليركية فى سداها ولحمتها . فإذا أنت لاحظت أخيراً أن اللاما الأكبر يعتبر فى تلك البلاد صورة لبوذا وإلهاً على الأرض ، إذن لرأيت بجلاء مبلغ التحكم الإكليرى تحكماً يشابه ما كان فى أوربا فى القرن الثانى عشر حين وضع الإكليروس يده على ثلث الأراضى فى إنجلترا وعلى نصفها فى ألمانيا ، وحين أقام البابا نفسه سلطاناً على الملوك والقياصرة .

للطاعة وللوهم مصدر واحد . ذلك بأن الذهن المضطرب الأعصاب العاجز أن يحكم بنفسه سريع إلى أن تحتله العقائد الجنونية ، وهو يهوى إلى لجة الوهم والحلم بسبب حرمانه التمييز ، ويؤدى به ضعفه ليرتكس

---

(١) ارشا .

وسط التخيلات الصبيانية . وليس شيء يعدل أوهام البوذيين فى سرفها وتطرفها حتى لتجل معجزات الأسطورة الذهبية ( La legende Dorée ) عن الاقتراب فى السرف منها . فإنك تراهم يدكون الأرض دكًّا ويتعذبون بسير آلاف ملايين الآلهة يتحكمون فى السماء والأرض ، كل ذلك مع الإسراف فى المبالغات الصبيانية والثرثرة القديمة العقيمة التى تسرع بك إلى التقزز .

والولى والقديس البوذى قدير على الإتيان بالمعجزات ، قدير على أن يحيط نظره بكل الخلائق وبكل العوالم ، قدير على أن يسمع كلام العوالم جميعها وكل ما فيها من ضجة . ثم هو عليم بأفكار كل الموجودات ، ذاكر لكل حيواته السابقة ولحيوات كل من سواه . وللبوذات المبتدئين والبوذات الكاملين ممن تسمو مرتبتهم على مرتبة الأولياء قوى أغرب وملكات أعجب . ولو شاء كاتب تسطير ما يمتاز به البوذا الكامل لامتلأت صحائف كتابه من الأرض حتى تصل إلى سماء برهمة فيحسبه من علامات الجمال ، اثنتان وثلاثون علامة ممتازة وثمانون علامة ثانوية . ولذهنه ثمانى عشرة مستقلات Dependence وسبع وثلاثون مجموعة Accompagnements وأربع أسس ثقة وعشر قوى . فإذا انتهى البوذيون من تضخيم إلههم على هذا النحو عادوا إلى تحليله . وعادوا إلى ذلك بادعاء ثقيل يعيبون به اندفاعهم الأخرق .

طبيعى أن يؤدى ذلك كله بهم إلى الجمود وإلى العبادة الآلية . فإن الذهن المكدود ميال للاندفاع الأعمى فى هذه السبيل . وهو يميل إلى ذلك برغم ما وضع به صاحب المذهب السلام فى دائرة الإحسان والزهد وحكم النفس ، وبرغم تنزيهه الدين عن المظاهر الخارجية . ذلك لأنه ما دامت

النظرة الثاقبة الحرة التى تميز بين الشكل والموضوع مفقودة فإنما يستمسك الرجل بالشكل إذ يجد الإمساك بالشكل المنموس أهون من الإحاطة بالحقيقة غير المنظورة . ومن هنا تنقلب العبادة عنده تقديساً للأصنام فيركع أمام بوذا وسواه من الأولياء ويقيم لهم صوراً وتماثيل عدة ، ويؤدى إليهم فرائض العبادة ويقيم لهم الأعياد تيمناً ، ويبنى الأهرامات والمقامات للاحتفاظ بعظامهم وأسنانهم وأرديتهم وبالأوعية التى يجمعون الإحسان فيها . ويشترى الملوك رفاتهم وبقاياهم بأثمان باهظة . ويحج المتدينون من مختلف الأقطار الآسيوية ليسجدوا أمام آثار أقدام بوذا وليملأوا الكنائس المقدسة بالنذور . وإنك لتقرأ فى أسفار الحاجين من أهل الصين مبلغ ما يقاسونه من المتاعب والأخطار أثناء رحلات يقدمون عليها بكل تفان وإخلاص . وطبيعى أن ينتظر الإنسان من عقل وصل إلى مثل هذا الدرك أغرب الأمور وأعجبها . فالناس من كل الطبقات فى بلاد المغول والتتر رجالا ونساء يمضون يومهم فى تلاوة الأدعية لا يمنعهم عن التلاوة سير ، أو طعام ، أو لعب ، وأخص أدعيتهم الدعاء ذو المقطوعات الست .

وهم فى سيلان وفى المغول يتلونه أغلب الوقت بلغة لا يفقهونها ، وكلما ازداد الشخص تلفظاً بهذه الأدعية أو كتابة لها أو طبعاً إياها ازداد ثوابه . وقد جر الطمع فى هذا المزيد إلى استبدال الماكينة بالإنسان ، وذلك بأن ملئت أسطوانات مخروطية الشكل بأوراق صغيرة نقشت عليها الصلوات والأدعية وعرضت فى الطرق العامة وفى المعابد وفى المنازل ليديرها من أراد فيكسب من الثواب كأنه تلا كل الأدعية الموجودة على تلك الأسطوانات ، ومنها ما بلغت ضخامته حتى صارت صورة الصلاة المقدسة منقوشة مائة مليون من المرات وقد ناط بعض ذوى التقوى إدارة أسطوانة الأسرة بخادم

خاص كما أقيمت طواحين الماء والهواء لأداء هذه الوظيفة . ولقد دهش السائحون لما رأوا تدهور الحال العقلية حتى عند أهل الجنوب بسبب توجيهها فى هذه السبيل . فقد بدت سيما البله على الأكثرين من القسيسين حتى لترى أغلب هؤلاء التعساء يهذون أثناء سيرهم وتطوق ثغورهم ابتسامة الغباوة ونظرتهم خلاء ، أما حالهم العقلية فهى بمنزلة حال الحيوان أو تكاد . ومثل هذا الوضع الدينى وتحت حكم هذا النظام يصبح الرجل صنماً .

هذه هى الديانة التى تعتبر الحادث الأكبر فى التاريخ الآسيوى – وبرغم أنها فى أصلها خلقة إنسانية صرفة فقد تطورت واختلطت على مرّ القرون . وما أطولها قصة دينية ، قصة تطورها التجريدى والقصصى وتقلباتها الوثنية (Payenne) والبرهمة . ومع أنها كانت هندية بحتة فى نشأتها فقد امتدت فى الشمال وفى الجنوب حتى شملت الهند الصينية ومملكة برما والصين واليابان والمغول وسيبريا والتيبت وإيران وطوران . وقصة تقدمها الهائل وهزائمها الجزئية ونضالها ضد عباد النار وضد المسلمين والبراهمة والأشكال المختلفة التى تشكلت بها عند الأجناس المختلفة وفى المدنيات التى دخلتها أطول من قصة تطورها وتقلبها . ولو أراد الإنسان فى هذا الاضطراب المتموج الضخم الذى احتل أكبر القارات مدى خمسة وعشرين قرناً أن يستجلى وأن يحدد المظهر الأساسى لهذه الظاهرة لصح له أن يقارنها بعملية جراحية مفيدة ومضعفة أسيل فيها دم الحيوان الإنسانى ، وقد كان على نفسه قوياً قاسياً ، من أربع مفاصله فجعله ما ضاع منه ضعيفاً رقيقاً . وبذلك أصبح أقل نشاطاً وأكثر للاجتماع قابلية ، ومن ثم صار أقل خلقاً وأقل إتلافاً .